ذكرياتي مع رفيقي عادل الصباح
أحد مسؤولي منظمة الحزب في الجنوب

لعادل الصباح في ذاكرتي مكان عزيز يقف فيه إلى جانب كوكبة من الرفاق الشيوعيين القدامى الذين تستعصي سيرتهم في الكفاح من أجل الحرية على النسيان.

تعرّفت إلى الرفيق عادل في مطالع خمسينات القرن الماضي. كنت يومذاك قد بدأت مسيرتي في صفوف الحزب الشيوعي بعد أن عدت من العراق الذي قادتني نضالات شعبه إلى الشيوعية من دون مقدمات. جئت إلى الشيوعية بحماس الشباب الثائر على كل ذلك الواقع الآسن الذي كانت تعيش فيه بلداننا في مرحلة ما بعد الاستقلال. طلقت أفكاري الرومانسية القديمة، ودخلت في أفكار جديدة كانت تربط بوعي وبواقعية بين الراهن من المهمات وبين اليوتوبيا وأحلامنا الزاهية فيها.

كان عادل قد سبقني في العمر وفي التجربة. إنضم إلى صفوف الحزب في أربعينات القرن، في أعقاب تلك المظاهرة التي شارك فيها في عام ١٩٤٣ مع الوطنيين من أبناء مدينة النبطية إستنكاراً لإعتقال سلطات الانتداب الفرنسي حكومة الاستقلال. وهكذا بدأ عادل مسيرته النضالية قبل أن يصبح شيوعياً. وقادته تلك التجربة مع والده وعمه ومع رهط من الوطنيين الجنوبيين من كل الأوساط الذين كان الاستقلال هاجسهم وهمهم اليومي.

كبر عادل سريعاً. وكبرت معه تجربته. وسرعان ما أصبح في مطالع الخمسينات شخصية مرموقة. وبإسم تجربته وبإسم شخصيته التي كانت تتكوّن بسرعة ترشح عادل في عام ١٩٥٣ للانتخابات النيابية بإسم الحزب الشيوعي. لم يكن المرشح الوحيد في الجنوب بإسم الحزب الشيوعي. لكن مدينة النبيطة التي سرعان ما تكوّنت فيها منظمة حزبية قوية من الشباب المكافحين هي التي أعطت لترشيح عادل أهميته، حتى ولو كان واضحاً بالنسبة إلى الحزب وإليه أنه لن يستطيع إقتحام الجدران المقفلة في وجهه وفي وجه أمثاله من أصحاب الأفكار الجديدة. هكذا كان الحال في ذلك الزمان وفي الأزمنة التي تلته حتى هذه اللحظة من تاريخنا البائس. أذكر أنني زرت النبطية في ذلك التاريخ بالذات. لكنني لم أعد أذكر المهمة التي من أجلها ذهبت. هل لأكون إلى جانب عادل في معركته، أم لمهمات حزبية من نوع آخر، أم لزيارة عائلية. لكنني في تلك الزيارة بالذات تعرّفت إلى عادل من دون تفاصيل.

غبت عن لبنان عدة سنوات في الخمسينات والستينات في مهمات أممية بإسم حزبنا الشيوعي. وكنت كلما أعود من غربتي أستذكر كل علاقاتي الحزبية، التي كان يمتزج بها الجانب السياسي

الحزبي بالجانب الانساني. إذ تكوّنت لي مع عادل الصباح ومع عدد من الرفاق في منظمات الحزب في مختلف المناطق صداقات كانت تمتزج في علاقات الرفقة في صفوف الحزب وفي النضالات تحت رايته. وكانت علاقتي مع عادل تنتمي إلى هذا النوع الذي أشرت من علاقات رفقة وصداقة. وهذه العلاقة بالذات هي التي كانت تقدم لي معرفة حقيقية بكل من أولئك الرفاق، ومن بينهم عادل.

وإني لأشهد بأن عادل الصباح ظل، في مختلف مراحل حياته، برغم الصعوبات التي واجهته في بعض المراحل مثلما واجهت رفاق آخرين، ظل أميناً لموقفه ولموقعه، ثابتاً في الانتماء لأفكاره التي كانت الأيام والأحداث تزيده إقتناعاً بها.

مرت الأيام سريعة مثل البرق. وشهدنا كوارث هنا وهناك وهنالك، كان أكثرها تأثيراً في المشاعر ذلك الحندث الزلزال الذي تمثل بإنهيار التجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، وليد ثورة أوكتوبر، ثم في سائر بلدان التجربة. إنهارت الأحلام لكن العقل ظل يحكم ويتحكم بمواقف الذين كانوا وما يزالون يعتبرون الاشتراكية، كقيم ومثل عليا، مستقبل العالم. في حين إهتزت القناعات عند آخرين. وهو أمر طبيعي. ذلك أن إنهيار التجربة الاشتراكية، هكذا دفعة واحدة ومن دون سابق إنذار، من شأنه أن يحدث خللاً في الأفكار وفي المشاعر.

كان عادل الصباح مثلي ومثل كثيرين آخرين سوانا من الذين هزّهم الانهيار من دون أن يتخلخل إنتماؤهم إلى أفكارهم. ومثل هذا الموقف يحتاج إلى قاعدة راسخة في الانتماء وفي الأفكار العظيمة. كان عادل في ذلك التاريخ قد أصبح خارج العمل التنظيمي في الحزب. لكنه كان يمارس عمله السياسي والاجتماعي، والثقافي كذلك، بإسم أفكاره. كان قد تقدم في العمر من دون أن يفقد حبه للحياة. فهو كان محباً للحياة، مكافحاً من أجل أن تكون جميلة في كل مجالات وميادين ممارستها وممارسة النشاط فيها. لم نعد نلتقي كثيراً. لكنني كلما كنت أشتاق إليه كنت أذهب إليه قصداً، أو أعرّج على النبطية في طريق ذهابي إلى بلدة الزرارية لزيارة شقيقاتي فيها، أو أعرّج إليه في طريق العودة.

عادل الصباح الشيوعي والانسان يظل يحتفظ في وجداني وفي ذاكرتي بالمكان العزيز الذي يلتقي فيه مع آخرين من أمثاله من قدامى الشيوعيين الذين أعتز بتاريخ علاقة الرفقة والصداقة معهم.